# الفتوحات المكية

للشيخ الأكبر والنور الأبهر
العارف بالله العلامة محيي الدين بن عربي
المتوفى ٦٣٨ هجرية

قرأه وقدم له
نواف الجراح

المجلد الأول

دار صادر
بيروت

جَميع الحُقوق محفوظَة

الطبعَة الأولى

1424هـ - 2004م

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

تأسست سنة 1863

ص.ب ١٠ بيروت ، لبنان
© DAR SADER Publishers
P.O.B. 10 Beirut, Lebanon
Fax: (961) 4.910270
e-mail: dsp@darsader.com
http: www.darsader.com

Al-Futuhāt al-Makkiyya
*(Ibn ʿArabī)*

ISBN 9953-13-080-9

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي، هو أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن عبدالله العربي الحاتمي الطائي، سماه أكثر أهل العلم «ابن عربي» وهو خطأ شائع أو ليميزوا بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي، الفقيه المالكي المتوفى عام 543 هـ، واسمه محمد ابن عبدالله بن محمد العربي المعافري الإشبيلي، وكلاهما ابن العربي، فليس واحد منهما بأولى من الآخر بهذه التسمية، فمن حقق التسمية أطلق على الشيخ الأكبر «ابن العربي» لا «ابن عربي».

ما اختلف الناس في أحد بعد النبوات بمثل ما اختلفوا فيه، فنظره الفلاسفة من أهل الشرق والغرب على أنه فيلسوف من فلاسفة الإسلام والديانات، وذلك لما رأوا في مؤلفاته من العمق ودقيق الفكر، والعبارة والحكمة، وانقسم فيه المسلمون إلى فريقين: فريق يعتبره رأس الضلالة والإلحاد، قائلاً بوحدة الوجود بما تتضمنه من حلول واتحاد، وذلك لأنهم لم يفهموا ما جاء به الشيخ رضي الله عنه في التوحيد، وبما قرؤوا أو دسوا عليه من كلام لا صحة له بالتحقيق العلمي، وفريق يعتبره شيخ المحققين ومربي العارفين، إمام أهل الكشف والوجود من المتأخرين، خاتم الولاية المحمدية الخاصة، وذلك لما أتى به من علوم العرفان والإلهيات التي لم يسبق إليها أحد من الصوفية والعارفين، والتي لم يأت أحد من بعده بمثلها إلى يومنا هذا.

ولد رضي الله عنه ليلة الإثنين أو ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة 560 هـ الموافق 27 تموز عام 1165م، في مرسية من شرق الأندلس في دولة السلطان محمد بن سعيد بن مرديس – وفي رواية مرذنيش – سلطان شرق الأندلس، وكان أبوه علي بن محمد من خواص السلطان بإشبيلية، وقيل كان أبوه وزير صاحب إشبيلية سلطان الغرب، حيث انتقل من مرسية إلى إشبيلية سنة ثمان وستين وخمسمائة، ويرتفع نسبه من أبيه إلى عبدالله بن حاتم أخي عدي بن حاتم الصحابي الجليل رضي الله عنه، ومن جهة أمه واسمها نور، إلى التابعي التقي أبي مسلم الخولاني. وكان أبوه محباً لأولياء الله تعالى، وكان عمه عبدالله بن محمد بن العربي من أهل طريق الله، يقول الشيخ عنه: دخل هذا الطريق في آخر عمره على يد صبي صغير، لم يدر ما هذا الطريق، دخله وهو في عمر الثمانين. (1)

لم يذكر الشيخ رضي الله عنه عن زوجاته بالمغرب شيئاً، فيترجح لدينا أنه لم يتزوج بالمغرب، وأما عن زوجاته بعد رحلته إلى الشرق فقد ذكر أنه كانت له زوجة توفيت بالحلة من بغداد ورثاها، ومن زوجاته المرأة الصالحة مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائي، وفاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين التي ولدت له كلاً من سعد الدين محمد وعماد الدين وابنة تكلمت في المهد وماتت صغيرة فأنزلها بيده في لحدها، وتزوج أم صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي فهو ربيب الشيخ رضي الله عنه، وقيل إنه تزوج ابنة قاضي القضاة المالكية بدمشق.

قرأ الشيخ رضي الله عنه القرآن بالسبع في إشبيلية على شيخه أبي بكر بن يخلف بن صافي اللخمي، وروى الحديث النبوي مسنداً دراية ورواية، حفظاً سماعاً وكتابة، إجازة من شيوخه، ولما كان الشيخ رضي الله عنه من المتأخرين حيث توفي عام 638 هـ، فقد حصَّل الكثير من علوم الكسب كما ذكر عن نفسه على شيوخ وعلماء عصره، وقد أشار إلى أنه اطلع على كل مسألة فقهية بجميع ما قيل فيها حتى زمانه، مع أدلة القائلين بها(2) ، وتيسر له علم الصحيح منها من غيره، وزاد على هذا العلم الكسبي ما منحه الله تعالى من العلم عن طريق التعمل بالتقوى، إضافة إلى ما مَنَّ الله به عليه من العلم الوهبي اللدني، فهو رضي الله عنه يعتبر مرجحاً في الأقوال الفقهية – بالنسبة لمذهبه – فيما وافق فيه سلفه من الفقهاء، ولا يعرف أكثر أهل العلم أن الشيخ الأكبر رضي الله عنه إمام صاحب مذهب فقهي مستقل، من مذاهب أهل السنة والجماعة، ونسبه بعض أهل العلم إلى المذهب الظاهري خطأ، ويذهب البعض إلى أنه مقلد لمذهب ابن حزم الظاهري، فيرد عليهم بقوله:

---

(1) رسالة روح القدس في محاسبة النفس .

(2) الفتوحات (334/1).

نسبوني إلى ابن حزم وإني ... لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا غيره فإن مقالي ... قال نص الكتاب ذلك علمي
أو يقول الرسول أو أجمع الخلـ ... ـق على ما أقول ذلك حكمي[1]

فالشيخ رضي الله عنه صاحب مذهب فقهي مستقل يكون في مذهبه ما يوافق من سبقه من الأئمة، وهم أكثر من الأربعة (أبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد بن حنبل) وما يخالفهم، كما أن في مذهبه ما يوافق الظاهرية وما يخالفهم في الأصول والفروع، فهو صاحب مذهب مستقل، وهو إمام مجتهد مطلق من أئمة أهل السنة والجماعة، له أكثر من ثلاثة وعشرين اجتهاداً في أصول الأحكام والتوحيد والعقيدة والعبادات[2]، وقد اجتمع الشيخ بكثير من علماء عصره في أثناء رحلاته وإقامته بالمغرب والمشرق فنراه يقول: إني ما أعرف منزلاً ولا نحلة ولا ملة إلا رأيت قائلاً بها ومعتقداً لها ومتصفاً بها باعترافه من نفسه، فما أحكي مذهباً ولا نحلة إلا عن أهلها القائلين بها، فإنه ما من مذهب أو نحلة إلا وقد رأيت قائلاً به[3].

ومن أجل صلابته في الحق فقد عاداه في زمانه بعض الفقهاء وبعض المتصوفة، وفيهم يقول: أصحاب علوم الرسوم، لما أكبوا على حب الجاه والرياسة والتقدم على عباد الله، وافتقار العامة إليهم، فلا يفلحون في أنفسهم، ولا يُفْلِح بهم، وهى حالة فقهاء الزمان، الراغبين في المناصب، من قضاء وشهادة وحسبة وتدريس... يغلب عليهم رعونات النفس، وقلوبهم قلوب الذئاب، لا ينظر الله إليهم، هذا حال المتدين منهم، لا الذين هم قرناء الشيطان... إلخ[4]. ويكرر ذلك في كتبه الثابتة في غير موضع، فلا عجب أن يعاديه بعض فقهاء زمانه حسداً لما كان عليه من مكانة لدى سلاطين وملوك زمانه، ونراه يقول في متصوفة زمانه: إني قد ذممت الصوفية، و لم أرد به الصادقين وإنما أعني الصنف الذي تزيا بزيهم عند الناس، وباطنه مع الله بخلاف ذلك... وأصحاب الدعاوى في هذه الطريقة كالمنافقين في المسلمين، فإنهم شاركوهم في الصورة الظاهرة، وبانوا بالبواطن، فذمي للصوفية إنما أذم هذا الصنف الذي ذكرت، فإن الحلولية والإباحية وغيرهم، من هذا الطريق ظهروا. [5]

ترجم له كثير من العلماء منهم ابن مُشدي المتوفى عام 633 هـ، وحكى عنه ابن سبط الجوزي المتوفى عام 654 هـ وكلاهما من معاصريه، وترجم له كل من الشيخ مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس، والإمام صفي الدين حسين بن الإمام جمال الدين أبي الحسن؛ والإمام ابن حجر العسقلاني، وألف في حقه الحافظ السيوطي كتاباً سماه «تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي» وترجم له أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري في كتابه «نفح الطيب» كل أولئك يذكرون الشيخ ابن العربي بالفضل والعلم؛ أما ما جاء في بعض التراجم من قدح فيه نقلاً عن الإمام ابن تيمية المتوفى عام 728هـ في كتابه الفتاوى، وعن بعض أعداء الشيخ من الفقهاء والمتصوفة بما نسبوه إليه زوراً، فإن أصحاب هذه التراجم ممن لم يعاصر الشيخ لم يحققوا نسبة ما نقلوه، فقد كان الإمام ابن تيمية يتهم الشيخ ابن العربي رضي الله عنه بأنه من القائلين بوحدة الوجود بما تتضمنه من حلول واتحاد، وأنه لا يفرق بين الحق والخلق، إلى غير ذلك من تهم أخرى جاءت في كتابه الفتاوى وكتبه الأخرى، وبالتحقيق العلمي المعتمد على النصوص يثبت عدم صحة ما نسبه الإمام ابن تيمية إلى الشيخ ابن العربي، بل نجد أن كلام الشيخ في كتبه الثابتة التي بين أيدينا يخالف تماماً ما نسبه إليه الإمام ابن تيمية[6]. فنجد الشيخ ابن العربي يقول: لا يصح أن يجتمع الخلق والحق في وجه أبداً[7].

أما ما ينشره بعض مَنْ ينتسب إلى العلم في زماننا هذا في الكتب والمجلات والصحف، دون أن يكلف نفسه عناء تحقيق ما يكتب، فينسب إلى الشيخ ابن العربي زوراً قوله:

الرب عبد والعبد رب * يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب * أو قلت رب أنّى يكلف

(1) الديوان/47
(2) راجع كتابنا «الفقه عند الشيخ الأكبر».
(3) الفتوحات (523/3).
(4) الفتوحات (335/3).
(5) رسالة روح القدس.
(6) راجع كتابنا «الرد على ابن تيمية».
(7) الفتوحات (41/3).

يشير بذلك إلى أن الشيخ ابن العربي قائل بوحدة الوجود لا فرق عنده بين حق وخلق، فهو التزوير المحض إذ نجد صحة البيتين:

الرب حق والعبد حق * يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك ميت * أو قلت رب أنّى يكلف [3]

كما يدعي من لا يتحقق بالعلم أن الشيخ ابن العربي يقول بوحدة الأديان،مستشهداً بما هو مكذوب على الشيخ في قوله:

عقد الخلائق في الإله عقائداً * وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وصحة البيت هي:

عقد الخلائق في الإله عقائداً * وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه [4]

وكذا زعمه أن الشيخ يقول:

أدين بدين الحب أنّى توجهت * ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهو الزور والتزوير حيث يقول الشيخ البيت ويشرحه فيقول:

أدين بدين الحب أنى توجهت * ركائبه فالدين ديني وإيماني

ثم يشرحه فيقول: يشير إلى قوله تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ فلهذا سماه دين الحب، ودان به ليتلقى تكليفات محبوبه بالقبول والرضى والمحبة ورفع المشقة والكلفة فيها، بأي وجه كانت، ولذا قال أنّى توجهت، أي أية سلكت مما يرضا ولا يرضى، فهي كلها مرضية عندنا، وقوله « فالدين ديني وإيماني» أي ما ثَمَّ دين أعلى من دين قام على المحبة والشوق لمن أدين له به، وأمر به على غيب، وهذا مخصوص بالمحمديين، فإن محمداً ﷺ له من بين سائر الأنبياء مقام المحبة بكمالها، مع أنه صفي ونجي وخليل وغير ذلك من معاني مقامات الأنبياء، وزاد عليهم أن الله اتخذه حبيباً، أي محباً محبوباً، وورثته على منهاجه. [5]

رحل الشيخ ابن العربي من الأندلس عام 598 هـ قاصداً الحج؛ ماراً بشمال إفريقية ومصر، فوصل مكة وجاور بها من عام 598 هـ إلى عام 600 هـ ثم استمرت رحلته إلى المشرق، متردداً بين بغداد والموصل والقاهرة وحلب وقونية ودمشق، وغيرها من البلدان، حيث استقر بدمشق من عام 629 هـ إلى عام 638 هـ حيث توفاه الله تعالى.

ألف الشيخ ابن العربي العديد من كتبه بالأندلس، قبل مغادرته إلى المشرق، كما ألف الشيخ كتباً أخرى ورسائل بعد هجرته إلى المشرق، والكتب الثابت نسبتها إلى الشيخ ابن العربي هى 74 كتاباً منها 56 كتاباً ورد ذكرها في كتاب الفتوحات المكية، والباقي ورد اسمه في بعض هذه الكتب.

لذلك يجب التنبيه على أن هناك كتباً مزورة ومدسوسة على الشيخ، منها: كتاب فصوص الحكم – كتاب التجليات – كتاب المحجة البيضاء – كتاب العبادلة – رسالة الأخلاق (المطبوعة) – كتاب بلغة الغواص – رسالة الاتحاد الكوني – كتاب الخلوة – إلى غير ذلك.

من هذا التحقيق يتبين لنا أنه لا يصح اعتماد نسبة كتاب إلى الشيخ ابن العربي، سواء من الكتب الثابت نسبتها إليه، أو غير الثابت نسبتها إليه، حتى يحقق نص الكتاب مع ما هو ثابت عن الشيخ من أصل يعتبر ميزاناً، مثل كتاب الفتوحات المكية، ولا يلتفت إلى تاريخ النسخة ولا إلى وجود سماع عليها أو نسبة الخط إلى الشيخ ابن العربي، فإن كل ذلك قابل للدس والتزوير.

توفي الشيخ رضي الله عنه بدمشق ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 638 هـ الموافق 16 تشرين الثاني عام 1240م ودفن بسفح قاسيون، وقبره مزار يؤمه كثير من الخلق إلى يومنا هذا.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

محمود محمود الغراب

6 كانون أول 1997

(1) الفتوحات (2/1) – كتاب مواقع النجوم – كتاب التنزلات الموصلية.

(2) الفتوحات (132/3).

(3) كتاب ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق (طبعة 1313هـ).

## ترجمة للإمام الأكبر
## كتبها محمد قطة العدوي[1]

يقول راجي رحمة المنان: محمد قطة العدوي ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن مصحّح دار الطباعة المصرية لا زالت بنشر كتب العلوم والمعارف خليقة حرية، بعد جميل الثناء على من أفاض بحار أسراره على من شاء من عباده، وجزيل الصلاة والتحية على أفضل من شمر في إرشاد الخلق عن ساعد جدّه واجتهاده، وعلى جميع الآل والصحابة وسائر أمة الإجابة، قد تمّ طبع هذا الكتاب الذي هو من أعظم المآثر الجميلة، وأكبر المفاخر الحميدة الجليلة، في أيام من بزغت شمس مرحمته في أفق الديار المصرية، ووكفت سحائب معدلته على من في حوزتها من كافة الرعية، و لمّ شعثها وقوّم أودها، وأحيى معالمها وجددها، وأفاض عليها نيل كرمه وجوده، حتى قرّت عينها بوجوده، غرّة جبهة عصره، ووحيد دهره، وعزيز مصره: الخديوي الأعظم، والداور الأكرم، حضرة أفندينا محمد سعيد باشا لا زالت جيوش الجور بسيف عدالته تتلاشى، ولا برحت الحكومة بسنا طلعته باسمة الثغر، وببث محامده طيبة العرف والنشر آمين بجاه سيد كل أمين .

وبعد أن تمّ طبعه على هذا المنوال، وبلغ تمثيله حدّ الكمال، أشار عليّ من لا تسعني مخالفته، وتتأكد عليّ طاعته: صاحب المعارف التي لا تنكر، والآداب التي هي أشهر من أن تذكر، من إذا أنشأ وشى بقلمه طراز الطروز وأبرز ببراعه من بنات فكره ما يزدري بكل خود عروس، كيف لا وهو عليّ الهمة، وجودة رأيه تنير من المعضلات الليالي المدلهمة، حضرة ناظر الوقائع والمطبعة، أتحفه الله تعالى بالعزّ والإقبال ومتعه، أن أذيل هذا الكتاب الذي تمّ طبعه، وعمّ في سائر الآفاق خيره ونفعه، بنبذة مختصرة تتضمن ترجمة صاحبه وذكر شيء من مآثره ومناقبه، لتتمّ بذلك الفائدة وتعود علينا من عوائد بركاته عائدة، فبادرت إلى مقتضى إشارته و لم آل جهداً في إجابته، ملخصاً ذلك من كتاب نفح الطيب، فأقول وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيت. إن مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ الأكبر ذو المحاسن التي تبهر: محمد بن عليّ بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتميّ من ولد عبد الله بن حاتم أخي عديّ بن حاتم يكنى أبا بكر، ويلقب بمحيي الدين، ويعرف بالحاتميّ وبابن عربي بدون ألف ولام حسبما اصطلح عليه أهل المشرق فرقاً بينه وبين القاضي أبا بكر بن العربيّ وكان بالمغرب يعرف بابن العربيّ بالألف واللام، وكان أيضاً يعرف في الأندلس بابن سراقة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وُلد يوم الاثنين أو ليلته سابع عشر رمضان سنة 560 في مرسية (وهي بضم الميم وسكون الراء وكسر السين المهملتين ثم مثناة تحتية وفي آخرها هاء مدينة محدثة إسلامية بنيت في أيام الأمويين الأندلسيين وهي في شرق الأندلس تشبه إشبيلية في غربه بكثرة المنازه والبساتين) وقرأ القرآن على أبي بكر بن خلف في إشبيلية بالسبع بكتاب الكافي، وحدثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد ابن شريح الرعينيّ عن أبيه، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشرّاط القرطبي وحدثه به عن ابن المؤلف. (وإشبيلية من قواعد الأندلس ولها خمسة عشر باباً وهي من غرب الأندلس وجنوبه وبينها وبين قرطبة أربعة أيام، وهي مدينة أوّلية، ومعنى اسمها المدينة المنبسطة). وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للداني عن أبيه عن المؤلف. وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الإشبيليّ الأزديّ وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم. ولقد أطال الإمام شمس الدين محمد بن مسدي في ترجمته فمن ذلك قوله: إنه كان جميل الجملة والتفصيل، محصلاً لفنون العلم أخصّ تحصيل، وله في الأدب الشأوْ الذي لا يلحق والتقدم الذي لا يسبق، سمع ببلاده من ابن زرقون والحافظ ابن الجد وأبي الوليد الحضرمي، وبسبتة (بلدة بالمغرب) من أبي محمد بن عبد الله، وقدم عليه إشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجيّ فسمع منه وأبو جعفر بن مصلّى انتهى.

ولقي المؤلف أيضاً عبد الحق الإشبيليّ وسمع منه كما تقدم، وإن قال ابن مسدي أن في ذلك عندي نظراً، فإن المؤلف نفسه ذكر في إجازته للملك المظفر غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ما معناه أو نصه: ومن شيوخنا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق ابن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيليّ رحمه الله حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين لي من أسمائها تلقين المهتدين والأحكام الكبرى والوسطى والصغرى وكتاب التهجّد وكتاب العافية ونظمه ونثره، وحدثني بكتب الإمام أبي محمد عليّ بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه انتهى.

---

(1) صورة ما وجدناه بالطبعة الأولى التي صار طبع تلك النسخة عليها وهي تحتوي على ترجمة المؤلف رضي الله عنه.

ومن كلام ابن مسدي أيضاً في ترجمته قوله: إنه كان ظاهريّ المذهب في العبادات، باطنيّ النظر في الإعتقادات، خاض بحار تلك العبارات وتحقق بمحيا تلك الإشارات، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والإقدام ومواقف النهايات في مزالق الأقدام، ولهذا ما ارتبت في أمره والله تعالى أعلم بسرّه انتهى. وسمع الحديث أيضاً من أبي القاسم الحزستانيّ وغيره. وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن بن أبي نصر في شوّال سنة 606 وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفيّ ويقول بها. وبرع في علم التصوّف، وله في ذلك تأليف كثيرة منها:

الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل، والجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة، وكتاب كشف المعنى في تفسير الأسماء الحسنى، وكتاب المعارف الإلهية، وكتاب الاسرى إلى المقام الأسرى، وكتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم، وكتاب عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب، وكتاب في فضائل مشيخة عبد العزيز بن أبي بكر القرشيّ المهدويّ، والرسالة الملقبة بمشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية، وكتب أخرى عديدة كالفصوص والفتوحات المدنية وهي مختصرة في قدر عشر ورقات، وكهذا الكتاب أعني: الفتوحات المكية الذي اختصره سيدي عبد الوهاب بن أحمد الشعراني المتوفي سنة 973 وسمّى ذلك المختصر: لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من **الفتوحات المكية** ، ثم اختصر هذا المختصر وسمّاه: **الكبريت الأحمر من علوم الشيخ الأكبر**. وذكر في مختصر الفتوحات ما نصّه: وقد توقفت حال الاختصار في مواضع كثيرة منه لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنّة والجماعة فحذفتها من هذا المختصر وربما سهوت فتبعت ما في الكتاب كما وقع للبيضاويّ مع الزمخشري، ثم لم أزل كذلك أظنّ أن المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محيي الدين حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبي الطيب المدنيّ المتوفى سنة 955 فذاكرته في ذلك فأخرج إليّ نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محيي الدين نفسه بقونية فلم أر فيها شيئاً ممّا توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسّوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنّة والجماعة، كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص وغيره إلى آخر ما قال.

ومن تأليفه أيضاً كتاب الأحاديث القدسية ذكر فيه أنه لما وقف على الحديث المرويّ في فضائل الأربعين بمكة المكرّمة سنة 599 جمعها بشرط أن تكون من المسندة إلى الله تعالى، ثم اتبعها أربعين عن الله تعالى مرفوعة إليه غير مسندة إلى رسول الله ﷺ، ثم أردفها بأحد وعشرين حديثاً فجاءت واحداً ومائة حديث إلهية، وله من التأليف المنطوية على الأسرار واللطائف وفنون العلوم والمعارف، ما تقف دون حصرها الأقلام ولا نفي من إحصائها بالمرام، كما هو معلوم مشهور وفي الكتب التاريخية مدوّن مسطور، وكان انتقاله رضي الله تعالى عنه من مرسية إلى أشبيلية سنة 568 فأقام بها إلى سنة 598 ثم ارتحل إلى المشرق حاجاً و لم يعد بعدها إلى الإندلس. وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفيّ، وابن عساكر، وأبو الفرج بن الجوزيّ، ودخل مصر وأقام بالحجاز مدّة ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم. وقال المنذريّ: ذكر أنه سمع بقرطبة من أبي القاسم بن بشكوال وجماعة سواه، وطاف البلاد وسكن بلاد الروم مدّة وجمع مجاميع في الطريقة. (وقرطبة من أعظم مدائن الأندلس وهي مدينة حصينة بسور ضخم من الحجر ودورها ثلاثون ألف ذراع، وبلغت عدّة مساجدها وحماماتها ألفاً وستمائة مسجد وتسعمائة حمام وبها سبعة أبواب كما في تقويم البلدان لأبي الفداء).

وقال ابن الأبار: أنه لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين وأخذوا عنه. وقال غيره: أنه قدم بغداد سنة 608 وكان يومي إليه بالفضل والمعرفة، والغالب عليه طرق أهل الحقيقة، وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف، ووصفه غير واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشأم والحجاز، وله أصحاب وأتباع. ومن تآليفه مجموع ضمنه منامات رأى فيها النبيّ ﷺ وما سمع منه، ومنامات قد حدّث بها عمّن رآه ﷺ. وحكى سبط ابن الجوزيّ عن الشيخ المؤلف أنه كان يقول: أنه يحفظ الاسم الأعظم، ويقول: أنه يعرف السيمياء بطريق التنزّل لا بطريق التكسّب. وقال ابن النجار في حقه: وكان قد صحب الصوفية وأرباب القلوب وسلك طريق الفقراء وحج: وجاور وكتب في علم القوم وفي أخبار مشايخ المغرب وزهادها، وله أشعار حسنة وكلام مليح، اجتمعت به في دمشق في رحلتي إليها، وكتبت عنه شيئاً من شعره، ونعم الشيخ هو، ذكر لي أنه دخل بغداد سنة 601 فأقام بها إثني عشر يوماً ثم دخلها ثانياً حاجاً مع الركب سنة 608 وأنشدني لنفسه:

أيا حائراً ما بين علم وشهوة ... ليتصلا ما بين ضدّين من وصلِ

ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن ... يرى الفضل للمسك الفتيق على الزبل

وسألته عن مولده فقال: ليلة الإثنين 17 رمضان سنة 560 بمرسية من بلاد الأندلس انتهى. ومن شعره أيضاً:

بين التذلّل والتدلّل نقطة ... فيها يتيه العالم النحريرُ

هي نقطة الأكوان إن جاوزتها كنت الحكيم وعلمك الإكسير

وله:

يا درّة بيضاء لاهوتية قد ركبت صدفاً من الناسوت
جهل البسيطة قدرها لشقائهم وتنافسوا في الدرّ والياقوت

ومن نظمه:

حقيقتي همّت بها وما رآها بصري
ولو رآها لغدا قتيل ذاك الحور
فعندما أبصرتها صرت بحكم النظر
فبت مسحوراً بها أهيم حتى السحر
يا حذري من حذري لو كان يغني حذري
والله ما هيمني إلاّ جمال الخفر
يا حسنها من ظبية ترعى بذات الحمر
إذا رنت أو عطفت تسبي عقول البشر
كأنما أنفاسها أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى في النور أو كالقمر
إن سفرت أبرزها نور صباح مسفر
أو سدلت غيبها ظلام ذاك الشعر
يا قمراً تحت دجى خذي فؤادي وذري
عيني لكي أبصركم إذ كان حظي نظري

وقال الخوليّ: قال الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه: رأيت بعض الفقهاء في النوم في رؤيا طويلة فسألني كيف حالك مع أهلك؟ فأنشدته:

إذا رأت أهل بيتي الكيس ممتلئا تبسمت ودنت مني تمازحني
وإن رأته خلياً من دراهمه تجهمت وانثنت عني تقابحني

فقال لي: صدقت كلنا ذاك الرجل. وذكر الإمام صفيّ الدين حسين ابن الإمام العلاّمة جمال الدين أبي الحسن علي ابن الإمام مفتي الأنام كما الدين أبي المنصور ظافر الأزديّ الأنصاري رضي الله تعالى عنه في رسالته الفريدة المحتوية على من رأى ممن سادات مشايخ عصره بعد كلام ما صورته: ورأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن العربي وكان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية، ومنزلته شهيرة، وتصانيفه كثيرة، وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً، لا يكترث بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً، وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الحزاز إخاء ورفقة في السياحات رضي الله تعالى عنهما في الآصال والبكرات. أنشدني ومن نظمه رحمه الله تعالى بلفظه قوله:

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

قال رحمه الله تعالى: قال لي بعض إخواني لما سمع هذا البيت كيف تقول أنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقلت له مرتجلاً:

يا من يراني مجرما * ولا أراه آخذا كم ذا أراه منعما * ولا يراني لائذا

قلت: من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مأوّل وأنه لا يقصد ظاهره وإنما له محامل تليق به، وكفاك شاهداً هذه الجزئية الواحدة فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد، وللناس في هذا المعنى كلام كثير والتسليم أسلم، والله بكلام أوليائه أعلم إلى آخره ما قال. وممّا نسبه إليه رحمه الله تعالى غير واحد قوله:

قلبي قطبي وقالبي أجفاني سرّي خضري وعينه عرفاني
روحي هارون وكليمي موسى نفسي فرعون والهوى هاماني

وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يكتبان لمن به القولنج في كفه ويلحسهما فإنه يبرأ بإذن الله تعالى، قال: وهو من المجرّبات. وقد تأوّل بعض العلماء قول الشيخ رحمه الله تعالى بإيمان فرعون أن مراده بفرعون النفس بدليل ما سبق.

ومن نظم المؤلف أيضاً نفعنا الله به:

يا غاية السؤل والمأمول يا سندي ... شوقي إليك شديد لا إلى أحد
ذبت اشتياقاً ووجداً في محبتكم ... فآه من طول شوقي آه من كمدي
يدي وضعت على قلبي مخافة أن ... ينشق صدري لما خانني جلدي
ما زال يرفعها طوراً ويخفضها ... حتى وضعت يدي الأخرى تشُدُّ يدي

وقال أيضاً:

بالمال ينقاد كل صعب ... من عالم الأرض والسماءِ
يحسبه عالم حجابا ... لم يعرفوا لذة العطاء
لولا الذي في النفوس منه ... لم يجب الله في الدعاء
لا تحسب المال ما تراه ... من عسجد مشرق لرائي
بل هو ما كنت يا بني ... به غنياً عن السواء
فكن برب العلا غنياً ... وعامل الخلق بالوفاء

وقال:

نبّه على السرّ ولا تفشه ... فالبوح بالسرّ له مقت
على الذي يبديه فاصبر له ... واكتمه حتى يصل الوقت

وقال:

قد ثاب غلماننا علينا ... فما لنا في الوجود قدر
أذنابنا صيرت رؤوساً ... ما لي على ما رآه صبر
هذا هو الدهر يا خليلي ... فمن يقاسيه فهو قهر

وقال أيضاً:

يا حبذا المسجد من مسجد ... وحبذا الروضة من مشهدِ
وحبذا طيبة من بلدة ... فيها ضريح المصطفى أحمد
صلّى عليه الله من سيد ... لولاه لم نفلح ولم نهتد
قد قرن الله به ذكره ... في كل يوم فاعتبر
ترشد عشر خفيات وعشر إذا ... أعلن بالتأذين في المسجد
فهذه عشرون مقرونة ... بأفضل الذكر إلى الموعد

وبالجملة فنظمه البحر الذي لا ساحل له، والنور الذي يجلوا غياهب الأوهام، ويكسو القلب من أسراره حلله، وما له من المناقب والكرامات لا تحصره مجلدات، وهو حجة الله الظاهرة، وآيته الباهرة، ولا يلتفت إلى كلام من تكلم فيه وأنكر عليه، وإذ قول المنكرين في حق مثله هباء لا يعبأ به وغثاء لا يركن إليه، كيف لا وقد تصدّى للإنتصار له والإذعان لفضله من فحول العلماء الجمّ الغفير، ونسبوا المنكرين عليه إلى القصور أو التقصير، فهذا شيخ الإسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازيّ الفيروز آباديّ الصديقيّ صاحب القاموس قد ألّف كتابه المسمّى بالإغتباط بمعالجة ابن الخياط بسب سؤال سئل فيه عن الشيخ المؤلف قدّس الله سرّه العزيز في كتبه المنسوبة إليه، وصورة السؤال المذكور: ما تقول السادة العلماء شدّ الله تعالى بهم أزر الدين ولمّ بهم شعث المسلمين في الشيخ محيي الدين بن عربي وفي كتبه المنسوبة إليه كالفتوحات المكية والفصوص والمواقف هل تحلّ قراءتها واقراؤها ومطالعتها؟ وهل هي الكتب المسموعة المقروءة أم لا؟ أفتونا مأجورين جواباً شافياً لتحوزوا جميل الثواب من الله الكريم الوهاب والحمد لله وحده. فأجاب عنه بما صورته: الحمد لله اللهمّ أنطقنا بما فيه رضاك الذي أعتقده في حال المسؤول عنه، وأدين الله تعالى به أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً، وإمام الحقيقة حقيقة ورسماً، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً.

إذا تغلغل فكر المرء في طرف ... من بحره غرقت فيه خواطره

عباب لا تكدره الدلاء، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء، كانت دعواته تخترق السبع الطباق، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق، وإني

أصفه وهو يقيناً فوق ما وصفته، وناطق بما كتبته، وغالب ظني أني ما أنصفته:

وما عليّ إذا ما قلت معتقدي ... دع الجهول يظن الحق عدوانا
والله والله والله العظيم ومن ... أقامه حجة للدين برهانا
إن الذي قلت بعض من مناقبه ... ما زدت إلاّ لعليّ زدت نقصانا

وأما كتبه ومصنفاته: فالبحور الزواخر: التي لكثرتها وجواهرها لا يعرف لها أول ولا آخر، ما وضع الواضعون مثلها وإنما خصّ الله بمعرفة قدرها أهلها، ومن خواص كتبه أن من واظب على مطالعتها والنظر فيها، وتأمل ما في مبانيها، انشرح صدره لحلّ المشكلات وفك المعضلات، وهذا الشأن لا يكون إلاّ لأنفاس من خصّه الله بالعلوم اللدنية الربانية. ووقفت على إجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها: وأجزته أيضاً أن يروي عني مصنفاتي ومن جملتها كذا وكذا حتى عدّ نيفاً وأربعمائة مصنف منها التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى سورة الكهف عند قوله تعالى: ﴿ وَعلمناه مِن لدنا علماً ﴾ [18 الكهف: 65] وتوفي و لم يكمله، وهذا التفسير كتاب عظيم كل سفر بحر لا ساحل له، ولا غرو فإنه صاحب الولاية العظمى الصديقية الكبرى، فيما نعتقد وندين الله به، وثمّ طائفة في الغيّ حائفة، يعظمون عليه النكير، وربما بلغ بهم الجهل إلى حد التكفير، وما ذاك إلاّ لقصور أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها، و لم تصل أيديهم لقصرها إلى اقتطاف مجانيها:

عليّ نحت القوافي من معادنها ... وما عليّ إذا لم تفهم البقر

هذا الذي نعلم ونعتقد وندين الله تعالى به في حقّه، والله سبحانه وتعالى أعلم. كتبه محمد الصديقي الملتجيء إلى حرم الله تعالى عفا الله عنه .

قال: وأما احتجاجه أي المنكر عليه بقول شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية حيث كان يطعن عليه ويقول هو زنديق فغير صحيح بل كذب وزور، فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائيّ عن جماعة من المشايخ كلهم عن خادم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام أنه قال: كنا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام فجاء في باب الردّة ذكر لفظة الزنديق فقال بعضهم: هل هي عربية أو عجمية؟ فقال بعض الفضلاء: إنما هي فارسية معرّبة أصلها زن دين أي على دين المرأة وهو الذي يضمر الكفر ويظهر الإيمان، فقال بعضهم مثل من؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ: مثل ابن عربي بدمشق، فلم ينطق الشيخ و لم يرد عليه. قال الخادم: وكنت صائماً ذلك اليوم فاتفق أن الشيخ دعاني للإفطار معه فحضرت ووجدت منه إقبالاً ولطفاً فقلت له: يا سيدي هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا؟ فقال: ما لك ولهذا كلْ فعرفت أنه يعرفه فتركت الأكل ، وقلت له: لوجه الله تعالى عرّفني به من هو؟ فتبسم رحمه الله تعالى وقال: الشيخ محيي الدين بن عربي، فأطرقت ساكتاً متحيراً فقال: ما لك؟ فقلت: يا سيدي قد حرت قال: لم قلت؟ أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي وأنت ساكت؟ فقال: أسكت ذلك مجلس الفقهاء هذا الذي روي لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام وممّن انتصر له أيضاً الشيخ كمال الدين الزملكانيّ من أجل مشايخ الشام فإنه كان يقول: ما أجهل هؤلاء ينكرون على الشيخ ابن عربي لأجل ألفاظ وكلمات وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها فليأتوني لأحل لهم مشكله وأبين له مقاصده بحيث يظهر لهم الحق ويزول عنهم الوهم. وقد أذعن له القطب سعد الدين الحمويّ وشهد له بالفضل الوافر الذي تقصر عن الإحاطة بطون الأوراق والدفاتر، وذلك أنه سئل عنه حيث رجع من الشأم إلى برده كيف وجدت ابن عربي؟ فقال: وجدته بحراً زخاراً لا ساحل له.

وألّف الشيخ صلاح الدين الصفديّ كتاباً جليلاً في تاريخ علماء العالم وترجم فيه المؤلف ترجمة عظيمة يعرف من اطلع عليها مذاهب أهل العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية. وكذلك الحافظ السيوطيّ ألف في شأنه كتاباً سمّاه: «تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي». وبالجملة: فمقامه رضي الله تعالى عنه معلوم وفضله عند أرباب البصائر مفهوم، والتعريف به يستدعي طولاً وهو أظهر من نار على علم، فلا تلتفت إلى من زلّت به القدم، فذمّ كيف لا وقد قال في شيء من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره أنه صنّفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية وأمره بإخراجه إلى الناس، قال الشيخ محيي الدين الذهبيّ حافظ الشأم: ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلاً وهو من أعظم المنكرين وأشدّهم على طائفة الصوفية، وقد كان مسكن المؤلف نفعنا الله به ومظهره بدمشق، وأخرج هذه العلوم إليهم و لم ينكر عليه أحد شيئاً منها. وكان قاضي القضاة الشافعية في عصره شمس الدين أحدم الخوليّ يخدمه خدمة العبيد، وقاضي القضاة المالكية زوّجه بنته وترك القضاء بنظرة وقعت عليه منه، وقد حكى رضي الله تعالى عنه عن نفسه في كتبه ما يبهر الألباب، وكفى بذلك دليلاً على ما منحه الله سبحانه الذي يفتح لمن شاء الباب.

وقال صاحب عنوان الدراية: أن الشيخ محيي الدين كان يعرف بالأندلس بابن سراقة وهو فصيح اللسان بارع فهم الجنان، قويّ على الإيراد كلما طلب الزيادة يزاد، رحل إلى العدوة ودخل بجاية في رمضان سنة ٥٩٧، وبها لقي أبا عبد الله العربيّ وجماعة من الأفاضل، ولما دخل بجاية في التاريخ المذكور قال: رأيت ليلة أني نكحت نجوم السماء كلها فما بقي منها نجم إلاّ نكحته بلذة عظيمة روحانية، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها، وعرضت رؤياي هذه على من عرضها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها وقلت للذي عرضتها عليه: لا تذكرني، فلما ذكر له الرؤيا استعظمها وقال: هذا هو البحر الذي لا يدرك قعره صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه، ثم سكت ساعة وقال: إن كان صاحب هذه الرؤيا في هذه المدينة فهو ذاك الشابّ الأندلسيّ الذي وصل إليها.

ثم قال في العنوان ما ملخصه: إن الشيخ محيي الدين رحل إلى المشرق واستقرت به الدار وألّف التآليف وفيها ما فيها أن قيض الله من يسامح ويتأوّل سهل المرام وإن كان ممّن ينظر بالظاهر فالأمر صعب، وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا في إراقة دمه فخلصه الله تعالى على يد الشيخ أبي الحسن البجائيّ فإنه سعى في خلاصه وتأوّل كلامه، ولما وصل إليه بعد خلاصه قال له الشيخ رحمه الله تعالى: كيف يحبس من حلّ منه اللاهوت في الناسوت؟ فقال له: يا سيدي تلك شطحات في محل سكر ولا عتب على سكران انتهى.

وذكر الإمام سيدي عبد الله بن سعيد اليافعي اليمني في الإرشاد أن المؤلف نفعنا الله به اجتمع مع الأستاذ السهروردي فأطرق كل منهما ساعة ثم افترقا من غير كلام، فقيل للشيخ ابن عربي: ما تقول في الشيخ السهروردي؟ فقال: مملوء سنة من فرقه إلى قدمه. وقيل للسهروردي: ما تقول في الشيخ محيي الدين؟ فقال: بحر الحقائق. ثم قال اليافعي ما ملخصه: إن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه فلما حضرته الوفاة نهى عن مطالعته وقال: إنكم لا تفهمون معاني كلام الشيخ، ثم قال: أي اليافعي وقد مدحه أي المؤلف وعظمه طائفة كالنجم الأصبهانيّ والتاج بن عطاء الله وغيرهما، وتوقف فيه طائفة وطعن فيه آخرون، وليس الطاعن بأعلم من الخضر عليه السلام إذ هو أحد شيوخه وله معه اجتماع كثير. ثم قال: وما نسب إلى المشايخ (أي كالمؤلف رضي الله تعالى عنه) له محامل: الأوّل: أنه لم تصحّ نسبته إليهم. والثاني: بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه وإنما يعلمه العارفون. الثالث: أن يكون صدور ذلك منهم في حال السكر والغيبة، والسكران سكراً مباحاً غير مؤاخذ ولا مكلف، انتهى ملخصاً.

(والعدوة: اسم للبر الذي يعدى من فرضته إلى الأندلس، ويسمّى أيضاً العدوة وهو المغرب الأوسط والأقصى، وبجاية بكسر الموحدة وفتح الجيم ثم ألف وياء مثناة تحتية وهاء قاعدة الغرب الأوسط).

وكان المؤلف رضي الله تعالى عنه يقول: ينبغي للعبد أن يستعمل همته في الحضور في مناماته بحيث يكون حاكماً على خياله يصرفه بعقله نوماً كما يحكم عليه يقظة، فإذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خلقاً له وجد ثمرة ذلك في البرزخ وانتفع به جداً، فليهتم العبد بتحصيل هذا المقدر فإنه عظيم الفائدة بإذن الله تعالى. قال: إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عزمه بذلك. وقال: ينبغي للسالك أنه متى حضر أن يعقد على أمر ويعاهد الله تعالى عليه أن يترك ذلك الأمر إلى أن يجيء وقته، فإن يسّر الله فعله وإن لم ييسر الله فعله يكون مخلصاً من نكث العهد، ولا يكون متصفاً بنقض الميثاق.

وحكى المقريزي في ترجمة سيدي عمر بن الفارض أفاض الله علينا من بركاته: أن الشيخ محيي الدين بن العربي بعث إلى سيدي عمر في شرح التائية فقال: كتابك المسمّى بالفتوحات شرح لها. وقال بعض من عرف به أنه لما صنف الفتوحات المكية كان يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة فما ادّخر منها شيئاً. وقيل: إن صاحب حمص رتّب له كل يوم مائة درهم، وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهماً، فكان يتصدق بالجميع. وأمر له ملك الروم مرة بدار تساوي مائة ألف درهم فلما نزلها وأقام بها مرّ به في بعض الأيام سائل. فقال له: شيء لله. فقال: ما لي غير هذه الدار خذها لك فتسلمها السائل وصارت له. واشتغل الناس بمصنفاته. وله ببلاد اليمن والروم حيث عظيم، هو من عجائب الزمان، وكان يقول: أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب. وقد قال فيه الشيخ محمد بن سعد الكلشني:

أمولاي محيي الدين الذي بدت ... علومك في الآفاق كالغيث إذا همى

كشفت معاني كل علم مكتم ... وأوضحت بالتحقيق ما كان مبهما

وقال رضي الله تعالى عنه، أنه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت فيّ بأمور عظيمة. فقلت: هذه قد جعلها الله سبباً لخير وصل إليّ فلأكافئنها، وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها وعنها ففعلت ذلك، فلما كان الموسم

استدلّ عليّ رجل غريب فسأله الجماعة عن قصده فقال: رأيت بالينبع في الليلة التي بتّ فيها كأن آلافاً من الإبل أو قارها المسك والعنبر والجوهر فعجبت من كثرته ثم سألت لمن هو؟ فقيل: لمحمد بن عربي يهديه إلى فلانة وسمّى تلك المرأة، ثم قيل: وهذا بعض ما تستحق، قال نفعنا الله به: فلما سمعت الرؤيا واسم المرأة و لم يكن أحد من خلق الله تعالى علم مني ذلك علمت أنه تعريف من جانب الحق، وفهمت من قوله أن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها فقصدت المرأة وقلت: أصدقيني وذكرت لها ما كان من ذلك فقالت: كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف فشكرك الجماعة التي كنت فيهم فقلت في نفسي: اللهم إني أشهدك أني وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الإثنين وفي يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما، قال: فعلمت أن الذي وصل إليها مني بعض ما تستحقه فإنها سبقت بالجميل والفضل للمتقدم.

* * *

وتوفي رضي الله تعالى عنه بدمشق ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 638. ودفن بسفح قاسيون . وقد أرّخ موته الكلشني محمد بن سعد بقوله:

إنما الحاتمي في الكون فرد ... وهو غوث وسيد وإمامُ
كم علوم أتى بها من غيوب ... من بحار التوحيد يا مستهام
إن سألتم متى توفي حميداً ... قلت : أرخت مات قطب همام

441 86111 = سنة 638 وأعقب رحمه الله تعالى ولدين أحدهما: سعد الدين محمد ولد بملطية في رمضان سنة 618، وسمع الحديث ودرس وقال الشعر الجيد، وله ديوان شعر مشهور، وتوفي بدمشق سنة 656 وهي السنة التي دخل فيها هولاكو ملك التتار بغداد وقتل الخليفة المستعصم، ودفن المذكور عند والده بسفح قاسيون. وثانيهما: عماد الدين أبو عبد الله محمد توفي بالصالحية سنة ٦٦٧ ودفن أيضاً بسفح قاسيون عند والده، أفاض الله علينا من أنواره، وكسانا من حلل أسراره، وسقانا من حميا شرابه، وحشرنا في زمرة أحبابه، بجاه سيد أصفيائه وخاتم أنبيائه صلّى الله عليه وعليهم وسلّم وشرف وكرم وعظم.

## مميزات هذه الطبعة

هذه الطبعة من أعرق وأفضل الطبعات وذلك للأسباب التالية:

1 – أنها طبعة بولاق وقد أثبتنا أرقامها بين /../.
2 – تم تخريج الآيات الكريمات وكتابتها من المصحف الشريف .
3 – تمّ التعليق عليها ووضع فهارس عامة لها ووضع عنواناً لكل موضوع.
4 – بالاضافة الى حسن الإخراج والترتيت

/2/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# خطبة الكتاب

## (صلّى الله على سيّدنا محمد)

## (تأملات في الحقيقة الوجودية)

الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم وعدمه. وأوقف وجودها على توجّه كلمه. لنتحقق بذلك سرّ حدوثها وقدمها من قدمه. ونقف عند هذا التحقيق على ما أعلمنا به من صدق قدمه. فظهر سبحانه وظهر وأظهر. وما بطن، ولكنه بطن وأبطن. وأثبت له الاسم الأول وجود عين العبد، وقد كان ثبت، وأثبت له الاسم الآخر تقدير الفناء والفقد وقد كان قبل ذلك ثبت. فلولا العصر والمعاصر، والجاهل والخابر، ما عرف أحد معنى اسمه الأول والآخر، ولا الباطن والظاهر، وإن كانت أسماؤه الحسنى، على هذا الطريق الأسنى، ولكن بينها تباين في المنازل، يتبين ذلك عندما تتخذ وسائل لحلول النوازل، فليس عبد الحليم، هو عبد الكريم، وليس عبد الغفور، هو عبد الشكور، فكل عبد له اسم هو ربّه، وهو جسم ذلك الاسم قلبه، فهو العليم سبحانه الذي علم وعلم، والحاكم الذي حكم وحكم، والقاهر الذي قهر وأقهر، والقادر الذي قدَّر وكسَّب ولمَ يقْدِر الباقي الذي لم تقم به صفة البقاء، والمقدس عند المشاهدة عن المواجهة والتلقاء. بل العبد في ذلك الموطن الأنزه لاحق بالتنزيه، لا أنه سبحانه وتعالىٰ في ذلك المقام الأنوه يلحقه التشبيه، فتنزول من العبد في تلك الحضرة الجهات، وينعدم عند قيام النظرة به منه الالتفات. أحمده حمد من عَلِم أنه سبحانه علا في صفاته وعلّى، وجلّ في ذاته وجلّى، وأن حجاب العزّة دون سُبُحاته مسدل، وباب الوقوف على معرفة ذاته مقفل، إن خاطب عبده فهو المسمع السميع! وإن فعل ما أمر بفعله فهو المطاع المطيع! ولما حيرتني هذه الحقيقة، أنشدت على حكم الطريقة للخليقة:

| | |
|---|---|
| الــربّ حــق والــعــبــد حــقٌ | يـا لـيـتَ شـعـري مَـن الـمـكـلـفْ؟ |
| إن قــلــتَ عــبــدٌ فــذاك مــيــتٌ | أو قــلــت ربّ أنّــى يــكــلّــف؟ |

فهو سبحانه يطيع نفسه إذا شاء بخلقه، وينصف نفسه مما تعين عليه من واجب حقّه، فليس إلاّ أشباح خاليه، على عروشها خاويه، وفي ترجيع الصدى، سرٌّ ما أشرنا إليه لمن اهتدى. وأشكره شكر مَن تحقق أن بالتكليف ظهر الاسم المعبود، وبوجود حقيقة «لا حول ولا قوة إلاّ بالله» ظهرت حقيقة الجود، وإلاّ فإذا جعلت الجنة جزاء لما عملت، فأين الجود الإلهيّ الذي عقلت؟ فأنت عن العلم بأنك لذاتك موهوب، وعن العلم بأصل نفسك محجوب، فإذا كان ما تطلب به الجزاء ليس لك، فكيف ترى عملك؟ فأترك الأشياء وخالقها، والمرزوقات ورازقها، فهو سبحانه الواهب الذي لا يملّ، والملك الذي عزّ سلطانه وجلّ، اللطيف بعباده الخبير، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

## (تأملات في الحقيقة المحمديّة)

والصلاة على سرّ العالم ونكتته، ومطلب العالم وبغيته، السيد الصادق، المدلج إلى ربه الطارق، المخترق به السبع الطرائق، ليريه من أسرى به ما أودع من الآيات والحقائق، فيما أبدع من الخلائق، الذي شاهدته عند إنشائي هذه الخطبة في عالم حقائق المثال، في حضرة الجلال، مكاشفة قلبيه، في حضرة غيبيه، ولما شهدته ﷺ في ذلك العالم سيداً معصوم المقاصد محفوظ المشاهد، منصوراً مؤيداً، وجميع الرسل بين يديه مصطفون، وأمته التي «هي خير أمة» عليه ملتفون، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافون، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صافون، والصدّيق على يمينه الأنفس، والفاروق على يساره الأقدس، والختم بين يديه قد حنى، يخبره بحديث الأنثى. وعليّ ﷺ يترجم عَنِ الختم بلسانه. وذو النورين /3/ مشتمل برداء حيائه مقبل على شأنه، فالتفت السيد الأعلى، والمورد العذب الأحلى، والنور الأكشف الأجلى، فرآني وراء الختم، لاشتراك بيني وبينه في الحكم. فقال له السيد: هذا عديلك، وابنك وخليلك! انصب له منبر الطرفاء[1] بين يديّ، ثم أشار إليّ أن قم يا محمد عليه فأثنِ على مَن أرسلني وعليّ، فإن فيك شعرة مني، لا صبر لها عني، هي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إليّ إلاّ بكليتك، ولا بدّ لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلاّ سعد؛ وكان ممّن شكر في الملأ الأعلى وحمد، فنصب الختم المنبر، في ذلك المشهد الأخطر، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر: **هذا هو المقام المحمدي الأطهر**، مَن رقى فيه فقد ورثه، وأرسله الحق حافظاً لحرمة الشريعة وبعثه، ووهبت في ذلك الوقت مواهب الحكم، حتى كأني أوتيت جوامع الكلم، فشكرت الله عزّ وجلّ وصعدت أعلاه، وحصلت في موضع وقوفه ﷺ ومستواه، وبسط لي على الدرجة التي أنا فيها كُم قميص أبيض فوقفت عليه، حتى لا أباشر الموضع الذي باشره ﷺ بقدميه، تنزيهاً له وتشريفاً، وتنبيهاً لنا وتعريفاً، أن المقام الذي شاهده من ربه، لا يشاهده الورثة إلاّ من وراء ثوبه، ولولا ذلك لكشفنا ما كشف، وعرفنا ما عرف، ألا ترى من تقفو أثره، لتعلم خبره؟ لا تشاهد من طريق سلوكه ما شهد منه، ولا تعرف كيف تخبر بسلب الأوصاف عنه، فإنه شاهد مثلاً تراباً مستوياً لا صفة له فمشى عليه، وأنت على أثره لا تشاهد إلاّ أثر قدميه، وهنا سرّ خفيّ إن بحثت عليه، وصلت إليه، وهو من أجل أنه إمام، وقد حصل له الأمام، لا يشاهد أثراً ولا يعرفه، فقد كشفت ما لا يكشفه وهذا المقام قد ظهر، في إنكار موسىٰ صلّى الله على سيدنا وعليه وعلى الخضر. فلما وقفت ذلك الموقف الأسنى، بين يدي من كان من ربه في ليلة إسرائه قاب قوسين أو أدنى، قمت مقنعاً خجلاً، ثم أيّدت بروح القدس فافتتحت مرتجلاً:

يا منزل الآيات والأنباء ... أنزل عليّ معالم الأسماءِ
حتى أكون لحمد ذاتك جامعاً ... بمحامد السرّاء والضرّاء

ثم أشرت إليه ﷺ:

ويكون هذا السيد العلم الذي ... جردته من دورة الخلفاء
وجعلته الأصل الكريم وآدم ... ما بين طينة خلقه والماء
ونقلته حتى استدار زمانه ... وعطفت آخره على الإبداء
وأقمته عبداً ذليلاً خاضعاً ... دهراً يناجيكم بغار حراء
حتى أتاه مبشراً من عندكم ... جبريل المخصوص بالأنباء
قال السلام عليك أنت محمد ... سرّ العباد وخاتم النُّبآء

---

(1) الطرفاء: شجر ينبت قريباً من الماء.

يا سيدي! حقاً أقول؟ فقال لي: صدقاً نطقت فأنت ظل ردائي
فاحمد وزد في حمد ربك جاهداً فلقد وهبت حقائق الأشياء
وأنثر لنا من شأن ربك ما انجلى لفؤادك المحفوظ في الظلماء
من كلّ حق قائم بحقيقة يأتيك مملوكاً بغير شراء

## (نشأة الكون وظهور الكائنات)

ثم شرعت في الكلام، بلسان العلاّم، فقلت وأشرت إليه، ﷺ، حمدت مَن أنزل عليك الكتاب المكنون، الذي «لا يمسّه إلاّ المطهرون»، المنزّل بحسن شيمك، وتنزيهك عن الآفات وتقديسك، فقال في سورة نّ: **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 1 ـ 5] ثم غمس قلم الإرادة في مداد العلم وخط بيمين القدرة في اللوح المحفوظ المصون، كل ما كان وما هو كائن وسيكون وما لا يكون، مما لو شاء وهو لا يشاء أن يكون، لكان كيف يكون من قدره المعلوم الموزون، وعلمه الكريم المخزون فـ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180] ذلك الله الواحد الأحد، /4/ فتعالىٰ عمّا أشرك به المشركون! فكان أول اسم كتبه ذلك القلم الأسمى، دون غيره من الأسماء: إني أريد أن أخلق من أجلك يا محمد العالم الذي هو ملكك فأخلق جوهرة الماء، فخلقتها دون حجاب العزّة الأحمى، وأنا على ما كنت عليه ولا شيء معي في عمَا[1].

فخلق الماء سبحانه بردة جامدة كالجوهرة في الاستدارة والبياض، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام وذوات الأعراض، ثم خلق العرش واستوى عليه اسمه الرحمن، ونصب الكرسي وتدلّت إليه القدمان، فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة فذابت حياءً وتحلّلت أجزاؤها فسالت ماء، وكان عرشه على ذلك الماء، قبل وجود الأرض والسماء، وليس في الوجود إذ ذاك إلاّ حقائق المستوى عليه والمستوي والاستواء، فأرسل النفس فتموّج الماء من زعزعه وأزبد، وصوت بحمد الحمد المحمود الحق عندما ضرب بساحل العرش فاهتز الساق وقال له: أنا أحمد، فخجل الماء ورجع القهقرى يريد ثبجه، وترك زبده بالساحل الذي أنتجه، فهو مخضة ذلك الماء، الحاوي على أكثر الأشياء، فأنشأ سبحانه من ذلك الزبد الأرض، مستديرة النشء مدحية الطول والعرض، ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها ففتق فيه السموات العلى، وجعله محل الأنوار ومنازل الملأ الأعلى، وقابل بنجومها المزيّنة لها النيرات، ما زيّن به الأرض من أزهار النبات، وتفرّد تعالىٰ لآدم وولديه، بذاته جلت عن التشبيه ويديه، فأقام نشأة جسدية، وسواها **تسويتين**: تسوية انقضاء أمده. وقبول أبده. وجعل مسكن هذه النشأة نقطة كرة الوجود وأخفى عينها، ثم نبّه عباده عليها بقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، فإذا انتقل الإنسان إلى برزخ الدار الحيوان، مارت قبة السماء وانشقت فكانت شعلة نار سيال كالدهان، فمن فهم حقائق الإضافات، عرف ما ذكرنا له من الإشارات، فيعلم قطعاً أنّ قبّة لا تقوم من غير عمد، كما لا يكون والد من غير أن يكون له ولد، فالعمد هو المعنى الماسك، فإن لم ترد أن يكون الإنسان فاجعله قدرة المالك، فتبين أنه لا بدّ من ماسك يمسكها، وهي مملكة فلا بدّ لها من مالك يملكها، ومن مسكت من أجله فهو ماسكها، ومن وجدت له بسببه فهو مالكها، ولما أبصرت حقائق السعداء والأشقياء عند قبض القدرة عليها بين العدم والوجود وهي حالة الإنشاء حسن النهايه، بعين الموافقة والهدايه، وسوء الغاية بعين المخالفة والغوايه، سارعت السعيدة إلى الوجود وظهر من الشقية التثبط والإبايه، ولهذا أخبر الحق عن حالة السعداء فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: 61] يشير إلى تلك السرعة. وقال في الأشقياء: ﴿فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 46] يشير إلى تلك الرجعه. فلولا هبوب

(1) العما: هو الغيم الرقيق الذي يحول بين الناظر وبين الشمس.

تلك النفحات على الأجساد ما ظهر في هذا العالم سالك غيّ ولا رشاد، ولتلك السرعة والتثبط أخبرتنا صلّى الله عليك، أن رحمة الله سبقت غضبه هكذا نسب الراوي إليك، ثم أنشأ سبحانه الحقائق على عدد أسماء حقّه، وأظهر ملائكة التسخير على عدد خلقه، فجعل لكل حقيقة اسماً من أسمائه تعبده وتعلمه، وجعل لكل سرّ حقيقة ملكاً يخدمه ويلزمه، فمن الحقائق من حجبته رؤية نفسه عن اسمه، فخرج عن تكليفه وحكمه، فكان له من الجاحدين، ومنهم من ثبت الله أقدامه واتخذ اسمه إمامه، وحقّق بينه وبينه العلاّمه، وجعله أمامه، فكان له من الساجدين. ثم استخرج من الأب الأوّل أنوار الأقطاب شموساً تسبح في أفلاك المقامات، واستخرج أنوار النجباء نجوماً تسبح في أفلاك الكرامات، وثبت الأوتاد الأربعة للأربعة الأركان، فانحفظ بهم الثقلان * فأزالوا ميد الأرض وحركتها، فسكنت فأزينت بحلي أزهارها وحُلل نباتها وأخرجت بركتها * فتنعمت أبصار الخلق بمنظرها البهي، ومشامّهم بريحها العطري وأحناكهم بمطعومها الشهي، ثم أرسل الأبدال السبعة إرسال حكيم عليم ملوكاً على السبعة الأقاليم، لكل بدل إقليم، ووزر للقطب الإمامين، وجعلهما إمامين على الزمامين، فلما أنشأ العالم على غاية الإتقان، ولم يبق أبدع منه كما قال الإمام أبو حامد في الإمكان، وأبرز جسدك صلّى الله عليك للعيان، أخبر عنك الراوي أنك قلت يوماً في مجلسك: «**إِنَّ اللهَ كَانَ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ بَلْ هُوَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ**». وهكذا هي صلّى الله عليك حقائق الأكوان، فما زادت هذه الحقيقة على جميع الحقائق، إلاّ بكونها سابقة وهنّ لواحق، إذ من ليس مع شيء فليس معه شيء ولو خرجت /5/ الحقائق على غير ما كانت عليه في العلم، لانمازت عن الحقيقة المنزّهة بهذا الحكم، فالحقائق الآن في الحكم على ما كانت عليه في العلم، فلنقل كانت ولا شيء معها في وجودها، وهي الآن على ما كانت عليه في علم معبودها، فقد شمل هذا الخبر الذي أطلق على الحق، جميع الخلق، ولا تعترض بتعدّد الأسباب والمسبّبات، فإنها ترد عليك بوجود الأسماء والصفات، وأن المعاني التي تدل عليها مختلفات، فلولا ما بين البداية والنهاية سبب رابط وكسب صحيح ضابط، ما عرف كل واحد منهما بالآخر، ولا قيل على حكم الأوّل يثبت الآخر، وليس إلاّ الرب والعبد وكفى، وفي هذا غنية لمن أراد معرفة نفسه في الوجود وشفا، ألا ترى أن الخاتمة عين السابقه، وهي كلمة واجبة صادقة؟ فما للإنسان يتجاهل ويعمى، ويمشي في دجنة ظلماء حيث لا ظل ولا ماء! وأنّ أحق ما سمع من النبأ، وأتى به هدهد الفهم من سبأ، وجود الفلك المحيط، الموجود في العالم المركب والبسيط، المسمّى بالهباء، وأشبه شيء به الماء والهواء، وإن كانا من جملة صوره المفتوحة فيه. ولما كان هذا الفلك أصل الوجود وتجلّى له اسمه النور من حضرة الجود كان الظهور، وقبلت صورتك صلّى الله عليك من ذلك الفلك أول فيض ذلك النور، فظهرت صورة مثليه، مشاهدها عينيه، ومشاربها غيبيه، وجنتها عدنيه، ومعارفها قلميه، وعلومها يمينيه، وأسرارها مداديه، وأرواحها لوحيه، وطينتها آدميه، فأنت أب لنا في الروحانيه؛ كما كان وأشرت إلى آدم صلّى الله عليه في ذلك الجمع أباً لنا في الجسميه. والعناصر له أم ووالد، كما كانت حقيقة الهباء في الأصل مع الواحد، فلا يكون أمر إلاّ عن أمرين، ولا نتيجة إلاّ عن مقدّمتين، أليس وجودك عن الحق سبحانه وكونه قادراً موقوفاً، وأحكامك عليه من كونه عالماً موصوفاً، واختصاصك بأمر دون غيره مع جوازه عليك عليه من كونه مريداً معروفاً، فلا يصحّ وجود المعدوم عن وحيد العين، فإنه من أين يعقل الأين؟ فلا بدّ أن تكون ذات الشيء أيناً لأمر مّا، لا يعرفه من أصبح عن الكشف على الحقائق أعمى، وفي معرفة الصفة والموصوف، تتبين حقيقة الأين المعروف، وإلاّ فكيف تسأل صلّى الله عليك بأين وتقبل من المسؤول فاء الظرف؟ ثم تشهد له بالإيمان الصرف، وشهادتك حقيقة لا مجاز، ووجوب لا جواز، فلولا معرفتك صلّى الله عليك بحقيقة مّا، ما قبلت قولها مع كونها خرساء في السماء، ثم بعد أن أوجد العوالم اللطيفة والكثيفة، ومهد المملكة وهيّأ المرتبة الشريفه، أنزل في أول دورة العذراء الخليفه، ولذلك جعل سبحانه مدتنا في الدنيا سبع آلاف سنة، وتحلّ بنا في آخرها حال فناء بين نوم وسنه، فننتقل إلى البرزخ الجامع للطرائق، وتغلب فيه الحقائق الطيارة على جميع الحقائق، فترجع الدولة للأرواح، وخليفتها في

ذلك الوقت طائر له ستمائة جناح، وترى الأشباح، في حكم التبع للأرواح، فيتحول الإنسان في أي صورة شاء، لحقيقة صحّت له عند البعث من القبور في الإنشاء، وذلك موقوف على سوق الجنه، سوق اللطائف والمنّة، فانظروا رحمكم الله وأشرت إلى آدم في الزمردة البيضاء، قد أودعها الرحمن في أوّل الآباء، وانظروا إلى النور المبين، وأشرت إلى الأب الثاني الذي سمّانا مسلمين، وانظروا إلى اللجين الأخلص، وأشرت إلى من أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله كما جاء به النص، وانظروا إلى جمال حمرة ياقوتة النفس: وأشرت إلى من بيع بثمن بخس. وانظروا إلى حمرة الإبريز. وأشرت إلى الخليفة العزيز. وانظروا إلى نور الياقوتة الصفراء في الظلام، وأشرت إلى من فضل بالكلام، فمن سعى إلى هذه الأنوار، حتى وصل إلى ما يكشفه لك طريقها من الأسرار، فقد عرف المرتبة التي لها وجد، وصحّ له المقام الآليّ وله سجد، فهو الرب والمربوب، والمحب والمحبوب!

أنظر إلى بدء الوجود وكن بهِ ... فطناً ترَ الجود القديم المحدِثا
والشيء مثل الشيء إلاّ أنه ... أبداه في عين العوالم محدَثا
إن أقسم الرائي بأنّ وجوده ... أزلاً فبرٌّ صادق لن يحنثا
أو أقسم الرائي بأنّ وجوده ... عن فقده أحرى وكان مثلثا

ثم أظهرت أسراراً، وقصصت أخباراً، لا يسع الوقت إيرادها، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها، فتركتها /6/موقوفة على رأس مهيعها، خوفاً من وضع الحكمة في غير موضعها، ثم رُدِدْت من ذلك المشهد النوميّ العَليّ إلى العالم السفلي. فجعلت ذلك الحمد المقدّس خطبة الكتاب، وأخذت في تتميم صدره، ثم أشرع بعد ذلك في الكلام على ترتيب الأبواب، والحمد لله الغنيّ الوهاب!

## (رسالة إلى الشيخ عبد العزيز المهدوي)

هذه رسالة كتبت بها إلى بعض الفقراء رضي الله عنه أما بعد فإنه:

لما انتهى للكعبة الحسناء ... جسمي وحصل رتبة الأمناءِ
وسعى وطاف وثم عند مقامها ... صلّى وأثبته من العتقاء
مَن قال هذا الفعل فرض واجب ... ذاك المؤمّل خاتم النُّبآء
ورأى بها الملأ الكريم وآدماً ... قلبي فكان لهم من القرناء
* ولآدم ولداً تقياً طائعاً ... صخم الدسيعة أكرم الكرماء
والكلّ بالبيت المكرم طائف ... وقد اختفى في الحلة السوداء
يرخي ذلاذل برده ليريك في ... ذاك التبختر نخوة الخيلاء
وأبي على الملأ الكريم مقدّم ... يمشي بأضعف مشية الزمناء
والعبد بين يدي أبيه مطرق ... فعل الأديب وجبرئيل إزائي
يبدي المعالم والمناسك خدمة ... لأبي ليورثها إلى الأبناء
فعجبت منهم كيف قال جميعهم ... بفساد والدنا وسفك دماء
إذ كان يحجبهم بظلمة طينه ... عمّا حوته من سنا الأسماء
وبدا بنور ليس فيه غيره ... لكنهم فيه من الشهداء
إن كان والدنا محلاً جامعاً ... للأولياء معاً وللأعداء
ورأى المويهة والنويرة جاءتا ... كرهاً بغير هوى وغير صفاء
فبنفس ما قامت به أضداده ... حكموا عليه بغلظة وبذاء
وأتى يقول أنا المسبح والذي ... ما زال يحمدكم صباح مساء

وأنا المقدّس ذات نور جلالكم ... وأتوا في حق أبي بكل جفاء
لا رأوا جهة الشمال ولم يروا ... منه يمين القبضة البيضاء
ورأوا نفوسهمو عبيداً خشّعاً ... ورأوه ربّاً طالب استيلاء
لحقيقة جمعت له أسماء من ... خصّ الحبيب بليلة الإسراء
ورأوا منازعه اللعين بجنده ... يرنو إليه بمقلة البغضاء
وبذات والدنا منافق ذاته ... حظ العصاة وشهوتا حوّاء
علموا بأن الحرب حتماً واقع ... منه بغير تردّد وإباء
فلذاك ما نطقوا بما نطقوا به ... فاعذرهم فهم من الصلحاء
فطروا على الخير الأعم جبلة ... لا يعرفون مواقع الشحناء
ومتى رأيت أبي وهم في مجلس ... كان الإمام وهم من الخدماء
وأعاد قولهم عليهم ربنا ... عدلاً فأنزلهم إلى الأعداء
فحرابة الملأ الكريم عقوبة ... لمقالهم في أول الآباء
أوَ ما ترى في يوم بدرٍ حربَهم ... ونبيُّنا في نعمة ورخاء *
بعريشه متملّقاً متضرعاً ... لإلَهه في نصرة الضعفاء
لما رأى هذي الحقائق كلها ... معصومة قلبي من الأهواء
/7/ نادى فأسمع كل طالب حكمة ... يطوي لها بشملة وجناء
طيّ الذي يرجو لقاء مراده ... فيجوب كل مفازة بيداء
يا راحلاً يقص المهامه قاصداً ... نحوي ليلحق رتبة السُّمراء
قل للذي تلقاه من شجرائي ... عني مقالة أنصح النصحاء
واعلم بأنك خاسر في حيرة ... لما جهلت رسالتي وندائي
إن الذي ما زلت أطلب شخصه ... ألفيته بالربوة الخضراء
البلدة الزهراء بلدة تونس ... الخضرة المزدانة الغرّاء
بمحله الأسنى المقدّس تربه ... بحلوله ذي القبلة الزّوراء
* في عصبة مختصة مختارة ... من صفة النجباء والنقباء
يمشي بهم في نور علم هداية ... من هديه بالسنة البيضاء
والذكر يتلى والمعارف تنجلي ... فيه من الإمساء للإمساء
* بدراً لأربعة وعشر لا يرى ... أبداً منوّر ليلة قمراء *
وابن المرابط فيه واحد شأنه ... جلت حقائقه عن الإفشاء
وبنوه قد حفوا بعرش مكانه ... فهو الإمام وهم من البدلاء
فكأنه وكأنهم في مجلس ... بدر تحف به نجوم سماء
وإذا أتاك بحكمة علوية ... فكأنه ينبي عن العنقاء
* فلزمته حتى إذا حلّت به ... أنثى لها نجل من الغرباء
حبر من الأحبار عاشق نفسه ... سرّ المجانة سيد الظرفاء
من عصبة النظار والفقهاء ... لكنه فيهم من الفضلاء
وافى وعندي للتنفل نية ... في كل وقت من دجى وضحاء
فتركته ورحلت عنه وعنده ... مني تغيّر غيرة الأدباء
وبدا يخاطبني بأنك خنتني ... في عترتي وصحابتي القدماء

وأخذت تائبنا الذي قامت به ... داري ولم تخبر به سجرائي
والله يعلم نيتي وطويتي ... في أمر تائبه وصدق وفائي
فأنا على العهد القديم ملازم ... فوداده صاف من الأقذاء
ومتى وقعت على مفتش حكمة ... مستورة في الغضة الحوراء
* متحيّر متشوّف قلنا له ... يا طالب الأسرار في الإسراء
أسرع فقد ظفرت يداك بجامع ... لحقائق الأموات والأحياء
نظر الوجود فكان تحت نعاله ... من مستواه إلى قرار الماء
ما فوقه من غاية يعنو لها ... إلاّ هو فهو مصرف الأشياء
* لبس الرداء تنزّهاً وإزاره ... لما أراد تكوّن الإنشاء
* فإذا أراد تمتعاً بوجوده ... من غير ما نظر إلى الرقباء
شال الرداء فلم يكن متكبراً ... وإزار تعظيم على القرناء *
* فبدا وجود لا تقيده لنا ... صفة ولا اسم من الأسماء *
إن قيل من هذا ومن تعني به؟ ... قلنا المحقق آمر الأمراء
/8/ شمس الحقيقة قطبها وإمامها ... سرّ العباد وعالم العلماء
عبد تسوّد وجهه من همّه ... نور البصائر خاتم الخلفاء
سهل الخلائق طيب عذب الجنى ... غوث الخلائق أرحم الرحماء
جلت صفات جلاله وجماله ... وبهاء عزّته عن النظراء
يمضي المشيئة في البنين مقسماً ... بين العبيد الصم والأجراء
ما زال سائس أمة كانت به ... محفوظة الأنحاء والأرجاء
شرى إذا نازعته في ملكه ... أرى إذا ما جئته لحباء *
صلب ولكن لين لعفاته ... كالماء يجري من صفا صماء
يغني ويفقر من يشاء فأمره ... محيي الولاة ومهلك الأعداء
لا أنس إذ قال الإمام مقالة ... عنها يقصر أخطب الخطباء
كنا بنا ورداء وصلّى جامع ... لذواتنا فأنا بحيث ردائي *
فانظر إلى السرّ المكتم درة ... مجلوة في اللجة العمياء
حتى يحار الخلق في تكييفها ... عيناً كحيرة عودة الإبداء
عجباً لها لم تخفها أصدافها ... الشمس تنفي حندس الظلماء
فإذا أتى بالسرّ عبد هكذا ... قيل اكتبوا عبدي من الأمناء
إن كان يبدي السرّ مستوراً فما ... تدري به أرضي فكيف سمائي
لما أتيت ببعض وصف جلاله ... إذ كان عي واقفاً بحذائي
قالوا لقد ألحقته بإلهنا ... في الذات والأوصاف والأسماء
فبأي معنى تعرف الحق الذي ... سواك خلقاً في دجى الأحشاء
قلنا صدقت وهل عرفت محققاً ... من موجد الكون الأعم سوائي
فإذا مدحت فإنما أثني على ... نفسي فنفسي عين ذات ثنائي
وإذا أردت تعرّفاً بوجوده ... قسمت ما عندي على الغرماء
وعدمت من عيني فكان وجوده ... فظهوره وقف على إخفائي
جلّ الإله الحق أن يبدو لنا ... فرداً وعيني ظاهر وبقائي

لو كان ذاك لكان فرداً طالباً ... متجسّساً متجسّساً لثنائي
هذا محال فليصحّ وجوده ... في غيبتي عن عينه وفنائي
فمتى ظهرت إليكم أخفيته ... إخفاء عين الشمس في الأنواء
فالناظرون يرون نصب عيونهم ... سحباً تصرفها يد الأهواء
والشمس خلف الغيم تبدي نورها ... للسحب والأبصار في الظلماء
فيقول قد بخلت عليّ وأنها ... مشغولة بتحلّل الأجزاء
لتجود بالمطر الغزير على الثرى ... من غير ما نصب ولا إعياء
وكذاك عند شروقها في نورها ... تمحو طوالع نجم كل سماء
فإذا مضت بعد الغروب بساعة ... ظهرت لعينك أنجم الجوزاء
* هذا لميتها وذاك لحيّها ... في ذاتها وتقول حسن رآء
فخفاؤه من أجلنا وظهوره ... من أجله والرمز في الأفياء
/9/ كخفائنا من أجله وظهورنا ... من أجلنا فسناه عين ضيائي
ثم التفت بالعكس رمزاً ثانياً ... جلّت عوارفه عن الإحصاء
فكأننا سيان في أعياننا ... كصفا الزجاجة في صفا الصهباء
فالعلم يشهد مخلصين تألّفاً ... والعين تعطي واحداً للرائي
فالروح ملتذّ بمبدع ذاته ... وبذاته من جانب الأكفاء
* والحسّ ملتذ برؤية ربّه ... فإن عن الإحساس بالنعماء
فالله أكبر والكبير ردائي ... والنور بدري والضياء ذكائي
والشرق غربي والمغارب مشرقي ... والبعد قربي والدنو تنائي
والنار غيبي والجنان شهادتي ... وحقائق الخلق الجديد إمائي
فإذا أردت تنزّهاً في روضتي ... أبصرت كل الخلق فيّ مرائي
وإذا انصرفت أنا الإمام وليس لي ... أحد أخلفه يكون ورائي
فالحمد لله الذي أنا جامع ... لحقائق المنشيّ والإنشاء *
هذا قريضي منبىء بعجائب ... ضاقت مسالكها على الفصحاء
فاشكر معي عبد العزيز إلهنا ... ولتشكر أيضاً إلى العذراء
شرعاً فإن الله قال اشكر لنا ... ولوالديك وأنت عين قضائي

وبعد حمد الله بحمد الحمد لا بسواه؛ والصلاة التامة على من أُسرِى به إلى مستواه، فاعلم أيها العاقل الأديب، الوليّ الحبيب، أن الحكيم إذا نأت به الدار عن قسيمه، وحالت صروف الدهر بينه وبين حميمه، لا بدّ أن يعرِّفه بكل ما اكتسبه في عيبته، وما حصله من الأمتعة الحكمية في غيبته، (وهذا)[1] ليُسيَّر وليّه بما أسداه إليه البرّ الرحيم من لطائفه، ومنحه من عوارفه، وأودعه من حكمه، وأسمعه من كلمه، فكأنّ وليّه ما غاب عنه، بما عرف منه. وإن كان الوليّ أبقاه الله قد أصاب صفاء ودّه بعض كدر لعرض، وظهر منه انقباض عند الوداع لإتمام غرض، فقد غمض وليّه عن ذلك جفن الانتقاد، وجعله من الوليّ أبقاه الله من كريم الاعتقاد، إذ لا يهتم منك، إلاّ من يسأل عنك، فليهنأ الوليّ أبقاه الله فإن القلب سليم، والودّ كما يعلم بين الجوانح مقيم، وقد علم الوليّ أبقاه الله، أنّ الودّ فيه كان ألياً، لا غرضياً ولا نفسياً، وثبت هذا عنده قديماً عني من غير علّة،

(1) زيادة يقتضيها النصّ.